التحولات الاجتماعية القيمية للشباب المغربي
محاولة للرصد والفهم

عبد اللطيف كداي

كثيرة هي الكتابات اليوم التي تؤشر على مرحلة جديدة من التعاطي العلمي مع قضايا واهتمامات الشباب في المجتمع المغربي، وعديدة هي القراءات والمقاربات التي وظفها عدد من الباحثين في ميادين وحقول معرفية تبدو متباعدة بالرغم من اشتغالها على قضايا التغير الاجتماعي الذي يهم بدرجات متفاوتة بعض شرائح المجتمع المغربي من جراء تلك التحولات التي شهدتها البنى الاجتماعية ككل خلال العقود الأخيرة ... وهذا ما يجعلنا نفكر اليوم بشكل جدي في رصد بعض جوانب هذا التحول، والتي غيرت – بشكل أو بآخر – من موقع ومن مسار هذه الشريحة الاجتماعية «فئة الشباب»، وانعكست بالتالي على قيمها ورؤاها التي تبدو غير مألوفة تماما بالمقارنة مع جيل الآباء...

فما هي أهم هذه التحولات ذات الطابع القيمي لدى فئات الشباب المغربي؟ وما هي بعض المتغيرات الاجتماعية المفسرة لها؟ ثم ما هي الآثار أو الانعكاسات الملاحظة من خلال رصد وتتبع وضعية هذه الفئة؟

1. في مدلول التحولات الاجتماعية:

يحفل التراث السوسيولوجي بالكثير من التعاريف التي ترتبط بمفهوم التحولات الاجتماعية بوصفها تلك التغيرات الواسعة والكبيرة في البنى الاجتماعية للمجتمع والتي تحدث أثرا في نظم المجتمع وتؤثر في العلاقات بين الأفراد، ويعرفه البعض بكونه «كل تحول يقع في التنظيم الاجتماعي سواء في بنائه أو وظائفه خلال فترة زمنية... وهو كل تغيير في التركيبة السكانية للمجتمع، أو البناء الطبقي، أو النظم الاجتماعية، أو في أنماط العلاقات الاجتماعية، أو في القيم والمعايير التي تؤثر على سلوك الأفراد وتحدد بشكل أو بآخر مكانتهم وأدوارهم في مختلف المؤسسات الاجتماعية التي ينتمون إليها»[1].

ولعل اهتمام علماء الاجتماع أساسا بدراسة التحولات الاجتماعية التي تطرأ على المجتمعات البشرية هو بغرض تسليط الضوء بشكل علمي على هذه التغيرات الحاصلة وتحديد تجلياتها

1 Guy ROCHER (1968) : Introduction à la sociologie générale le changement social, édition HMH, P.22

واتجاهاتها ووظيفتها في تقدم ونمو هذه المجتمعات، وبالتالي التنبؤ العلمي بمسارها وفق ما يمكن أن نسميه ب»قوانين التغير الاجتماعي».

ومغربيا يمكن القول، بناء على ما تراكم من دراسات وأبحاث يصعب رصدها في هذا المقام[2]، أن هذه التحولات متداخلة ومتشابكة جدا اختلط فيها العامل السياسي بالاقتصادي بالاجتماعي بالثقافي بالديمغرافي، وأن هذه التحولات في مجملها لا تسير على خطى ثابتة وواضحة يمكن التنبؤ علميا بمسارها واتجاهاتها في ضوء ما تراكم من دراسات وأبحاث، إذ لا تزال هناك أشياء كثيرة عصية على التناول العلمي. ومن هنا تستدعي الحاجة إلى مراكز البحث لدراسة التحولات والتغيرات الاجتماعية بالمغرب على غرار ما هو معمول به في الدول المتقدمة.

ومهما يكن من أمر، فإن جل المعطيات المتوافرة إلى اليوم تؤكد أن التغير شمل مناحي متعددة من المجتمع المغربي، بعضها يمكن قياسه كميا، والبعض الآخر بشكل كيفي، في حين تبقى بعض هذه التحولات عصية على القياس والفهم معا. فالمغرب ومنذ عقود من الزمن عرف «عدة تحولات ديمغرافية وعمرانية تتمثل أساسا في الانتقال الديمغرافي والتوسع الحضري والتمدين الكثيف جراء حركية السكان وهجراتهم إلى جانب الانفتاح على المستويين الاقتصادي والثقافي... وقد رافق هذه التحولات ارتفاع سقف المطالب الاجتماعية في واقع يعج بالعديد من التحديات الكبرى...»[3]

2. في مدلول القيم:

يعتبر البحث في القيم من القضايا الإشكالية حقا، بالنظر إلى شساعة هذا المفهوم وتفرعاته العديدة وتداخله مع مفاهيم أخرى قريبه منه، ويظل مفهوم القيم مفهوما مركزيا في حياة كل المجتمعات.

2 نقدم هنا بعض نماذج فقط من الأبحاث والدراسات التي تناولت بعض مظاهر هذه التحولات:

- Ali Amahan (1998): Mutations sociales dans le Haut Atlas : Les Ghoujdama, Editions de la Maison des Sciences de l'Homme, Paris.
- Haut Commissariat au Plan (2006): Prospective Maroc 2030 - La société marocaine - permanences, changements et enjeux pour l'avenir.
- IRES(2010) : Nouveaux mouvements sociaux et protestations au Maroc
- André Adam (1968) : Casablanca, Paris, Éditions du CNRS.
- Robert Montagne (1930): Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, Librairie Félix Alain.
- Rahma Bourqia(2010) : Valeurs et changement social au Maroc, in: http://www.iemed.org/publicacions/quaderns/13/qm13_pdf/14.pdf
- عبدالهادي الهروي (2004): القبيلة، الإقطاع والمخزن مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث، إفريقيا الشرق، البيضاء
- كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (2002): التحولات الاجتماعية والثقافة في البوادي المغربية، منشورات كلية الآداب، مطبعة النجاح الجديدة
- عبدالرحيم العطري (2012): تحولات المجتمع القروي أسئلة التنمية المؤجلة، دفاتر الحرف والسؤال، سلا.

3 **البشير تامر(2012):** التحولات الاجتماعية والمجتمع المدني في العالم العربي - حالة المغرب- ضمن أشغال اللقاء الثاني لجهة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا للمجلس العالمي للعمل الاجتماعي في موضوع: التحولات الاجتماعية في العالم العربي وقائع وتساؤلات،المنظم بالرباط بتاريخ 18- 19 يونيو 2012 تنسيق ادريس الكراوي.

وبالنسبة لكثير من العلماء (توكفيل، فيبر، دوركهايم) القيم هي أساسية لفهم التنظيم والتغيير بالنسبة للمجتمع والأفراد على حد سواء. وقد كانت القيم دائما في صلب اهتمام هؤلاء ذلك «أن الرابط الاجتماعي كأساس لتماسك المجتمع، لا يمكن تصوره إلا إذا كان مبنيا على قيم مشتركة. فيما السوسيولوجيا الحديثة والمعاصرة تهتم بسؤال القيم من خلال أوجه مختلفة من الحياة الاجتماعية».[4]

وتستعمل القيم على نطاق واسع «لتمييز الأفراد أو المجتمعات، ولتتبع التغيير في الزمان، ولتفسير الدوافع الأساسية الكامنة وراء المواقف والسلوكات. والقيم هي أصل القوانين والقواعد والاتفاقات والأعراف التي تحكم الجماعات والعلاقات بين أفرادها»[5].

ولأن القيم هي القناعات التي نعتبرها ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا، و التي تشكل مرجعياتنا الأساسية وتمكننا من إجراء اختياراتنا الحاسمة، وتعمل على توجيه أفعالنا وسلوكنا بشكل كبير. «فهي العناصر الأكثر استقرارا في شخصيتنا، وبالتالي هي المحرك الذي يعطينا الطاقة، و هي أساس الثقة بالنفس. وهكذا تعتبر القيم في جزء مهم منها إرث مكتسب من تربيتنا، ومن الوسط السوسيوثقافي، من الدين، ومن جميع الأفراد أو المجموعات الاجتماعية التي أثرت علينا»[6].

إلا أنه عند دراستنا للقيم عند الشباب لا يجب اعتبارها « مشكلا»، بقدر ما يجب مقاربتها كبعد من الأبعاد الضرورية لمشروع حياة الشاب، وبناء لتمثل العالم من طرف فاعل اجتماعي له قناعاته وتصوراته وممكناته أيضا. وعموما فإن القيم عند الشباب «تتميز بنوع من الاستقرار، فالأفراد الذين اكتسبوا تدريجيا مجموعة من القيم عبر التنشئة الاجتماعية، لا يغيرونها بسهولة... لكن بالرغم من اقتناعهم بأهمية قيمة معينة، فأنهم يحتفظون بحريتهم في الفعل ارتباطا بالمبادئ التي يتداولونها فيما بينهم... «.[7]

وإذا كانت القيم كنظام مثالي أو أخلاقي، فإنها تستمد مكانتها من مرجعية معينة مشتركة بين الأفراد غير قابلة للاختزال، من خلالها يصدر أفراد مجتمع معين أحكام قيمة على أحداث واتجاهات وتصرفات الآخرين... إلا أنها تتطور ببطء شديد على عكس مفهوم التحول أو التغير الاجتماعي الذي يبدو أنه يتطور بسرعة أكثر لاسيما في المجتمعات السائرة في طريق النمو كما هو الحال بالنسبة للمجتمع المغربي.

4 Op.cit, p.12

5 Shalom H. Schwartz(2006). *Les valeurs de base de la personne : théorie, mesures et applications*, In Revue française de sociologie N°4 - Vol.47 / P.P 929 -968.

6 Ibid,

7 Olivier Galland, Bernard Roudet (2001). *Les valeurs des jeunes: tendances en France depuis 20 ans*.L'Harmattan, P.13

3. الشباب في عمق التحول

يتسم البحث في قضايا الشباب بنوع من النمطية التي دأبت عليها بعض الدراسات من خلال دراسة آثار التحولات الاجتماعية على الشباب، دونما النظر إلى إسهام الشباب بدوره، كفئة اجتماعية متميزة، في مسار هذا التغير وشكله ومضمونه لاسيما في الجوانب ذات البعد القيمي، فنجدها ركزت بشكل كبير على تشكيلات اجتماعية أخرى كالقبيلة والطبقة... أو على عوامل خارجية محددة كالعولمة والإعلام وما إلى ذلك...

كما نجد في المقابل إسهابا في الحديث عن قضايا الشباب لاسيما في فترات التأزم والتوتر الاجتماعي حيث تكثر الندوات والاستطلاعات والخطب السياسية والتناول الإعلامي... مما أفقد الشباب، في الظرف الراهن، دوره كفاعل اجتماعي. كما أن الاهتمام الظرفي الذي أملته الأحداث والأزمات قد ينتهي بانتهائها، مما يستوجب توليد لحظة تاريخية فاصلة في الاهتمام بقضايا الشباب كعادة بحثية أكاديمية مستديمة تفضي إلى خلق التراكم الضروري حول المسألة الشبابية برمتها بعيدا عن القوالب الفكرية الجاهزة والتمثلات التي نحملها أو نتوهمها عن جيل الشباب.

لقد أصبح للشباب حضور متنام على الساحة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وهو حضور ذو بعدين سياسي وثقافي[8] يتلازمان طورا ويتعاقبان طورا آخر. كما أن المجتمعات المصنعة التي بلغت قدرا عاليا من التعقيد سمحت أكثر من غيرها بظهور ثقافات فرعية شبابية، وببروز حركات شبابية ثقافية تلقائية أو منظمة تفاعلت مع الأحداث الكبرى التاريخية وساهمت فيها[9]. وهذا ما بوأ الشباب مكانة اجتماعية لافتة أبرزت دوره في صناعة المجتمع الجديد ورسم اتجاهات التحول.

هذا التحول في وضعية الشباب، الذي أصبح منذ فترة من الزمن فاعلا في أشكال جديدة من السلوك والتفكير والقيم، حاملا معه تعبيرات ثقافية متمايزة يعكس وعي الشباب وارتباطه بقضايا المجتمع الأساسية ودوره في التغيير، ذلك أن المجتمعات «عندما تعي بوجودها الإشكالي وبالصعوبات التي تعترض سعيها إلى الاستمرارية أي إعادة إنتاج نفسها، فإنها تعيد النظر في نسق التنشئة وتطرح الأسئلة على شبابها وعما هي فاعلة به، وتتقبل في نفس الوقت الأسئلة التي تطرحها الأجيال الصاعدة التي ترفض ما يقدم لها وتستعد لأخذ مكانها في الوقت المناسب... إن مجرد النقد البسيط بين المراحل العمرية يتحول إلى نقد موسع للمجتمع، وإن التفكير في الشباب يعني التفكير في كل شيء: المدرسة، العمل، السياسة... إن الشباب بالقدر الذي يخيف فهو يبهر أيضا...»[10].

8 يمكن أن نستدل هنا على مجموعة من الشباب البرلمانيين في نظام ما يعرف بالكوطا الشبابية، والعديد من الأوجه الثقافية الشابة في شتى المجالات.

9 **المنجي الزيدي** (2005): الدخول إلى الحياة، منشورات تبر الزمان، تونس. ص.73.

10 Georges Balandier (1974) : *Anthropo-logiques* , Paris, PUF. P.85.

في مقابل هذا الحضور نجد غيابا أيضا لفئات أخرى من الشباب التي تعيش على الهامش وتسهم بدورها في حركية اجتماعية مناقضة تماما للأولى، ذلك أن تحقيق الشباب لذاته، يرتبط، في جزء منه، بالوضعية السوسيواقتصادية التي يعيشها وهو الأمر الذي أشارت إليه دراسة المندوبية السامية للتخطيط على مستوى المغرب حول الظروف السوسيواقتصادية للمراهق، وهي وضعية تم رصدها على ثلاثة مستويات هي : السمات المميزة للتمدرس، والخصائص السوسيواقتصادية لأسرته، وعلى نحو لاحق مدى مشاركة هذه الفئة من الشباب في الحياة الاجتماعية كعضو نشيط[11].

1-4. مظاهر التحول لدى الشباب من القوة إلى الهشاشة

تجمع العديد من المساهمات الفكرية في ميادين العلوم الإنسانية على كون الشباب قوة تنمية وتغيير وبناء لمستقبل المجتمعات ورفاهها. كما أن كل المهتمين بتطور المجتمعات من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية...، يجزمون على أن الشباب هو صمام الأمان لحفظ هوية المجتمعات والدفاع عن جوهرها وضمان استقرارها واستمراريتها. لكن المتتبع لأوضاع دول العالم الثالث، ومن ضمنها المغرب طبعا، يلاحظ أن الطابع الشاب للمجتمع في العقود الأخيرة بات يشكل عبئا على الدولة والمجتمع عوض أن يشكل قوة بناء، وعائقا أمام التقدم في النمو، عوض أن يكون عنصر جذب نحو المستقل، ومجالا لانتعاش الظواهر السلبية من انحراف وبطالة وتطرف وجهل... بدل أن يكون طاقة خلاقة للتقدم والإبداع... فما هي مظاهر وتجليات هذا التحول؟ وما السر في هذه المفارقة؟

هشاشة وهدر مدرسي مبكر:

يشكل الوضع التربوي والتعليمي للأطفال والشباب التحدي الرئيسي لمغرب اليوم، سواء بالنظر إلى حجم الميزانيات المرصودة والمجهودات المبذولة والتي لا تعكس بحال النتائج المخيبة للآمال على أكثر من صعيد. فقد أشار تقرير اليونسكو لسنة 2011 إلى كون المغرب يحتل مواقع جد متقدمة من حيث نسبة الإنفاق العام على التعليم بالنسبة إلى ميزانية الدولة، فهو يعتبر ثاني دولة عربية من حيث حجم الإنفاق على التعليم ب 25،7% من الميزانية العامة وذلك بعد الإمارات العربية المتحدة ب27،2%[12].

وعبر التقرير الأخير الصادر عن اليونيسيف عن الانشغال العميق لهذه المنظمة الدولية بمشكل التسرب المدرسي الذي يمس قرابة 340 ألف تلميذ مغربي الذين يغادرون سنويا مقاعد الدراسة. مما دفعها إلى أن توصي بضرورة تطبيق نشاطات تربوية متنوعة غير رسمية تسمح بزيادة

11 Haut Commisariat au Plan. (1999). *Conditions socio-économiques des adolescents*.

12 UNESCO (2010). Education au Maroc : Analyse du secteur. UNESCO, Bureau multipays pour le Maghreb.

فرص هؤلاء الأطفال والمراهقين في الالتحاق بالنظام المدرسي أو أنظمة تربوية تقنية تضمنها كفاءات معترف بها[13]. خاصة في ظل استمرار الارتفاع المسجل في إقصاء التلاميذ والشباب، وضعف الاندماج المدرسي والاجتماعي، إذ أن ما يقارب 7 ملايين من التلاميذ والطلبة في حاجة لتنمية الكفايات الثقافية... كما أن نسبة الهدر تبقى جد مرتفعة 8% في طور مستويات التعليم الأولى، وترتفع في الإعدادي إلى 31%. أما فيما يتعلق بمعدلات استكمال الدراسة فتؤكد معطيات المجلس الأعلى للتعليم أن فقط 83% من يحصلون على شهادة نهاية المرحلة الابتدائية، و57% من يستكملون المرحلة الإعدادية، و15% من يحصلون على شهادة الباكالوريا، و3% على شهادة الإجازة، دون الحديث عن حوالي 850 ألف طفل خارج المدرسة لا تشملهم برامج التربية غير النظامية[14].

هذا في الوقت الذي ارتفعت فيه مصاريف التمدرس خلال الخمس سنوات الأخيرة والتي أثقلت كاهل الأسر المغربية، كما بينت ذلك منذ مدة دراسة المندوبية السامية للتخطيط، هذا الارتفاع الذي يقدر سنويا ب 1،8%، ويعود ذلك إلى زيادة سنوية قدرها 0،4% بالنسبة لأثمان اللوازم المدرسية و2،3% في نفقات الدراسة، و1،4% في مصاريف السكن الداخلي الخاص بالتعليم[15].

إن الهشاشة السوسيواقتصادية لأسرة الشاب المتمدرس من شأنها أن تجعل الآباء أقل انخراطا في مسؤولياتهم التربوية تجاه أبنائهم، ذلك أن أرباب الأسر الذين يعانون صعوبات مالية كتدني مستوى الدخل على سبيل المثال، تهتز مكانتهم ودورهم كآباء، وتتشكل لدى أبنائهم صورة سلبية حيث يتصورونهم عاجزين عن تحقيق انتظاراتهم[16].

ولعل مثل هذه الدراسات تقربنا أكثر من إشكالية إعادة الإنتاج، بحيث نجد أن احتمالات عدم تمدرس أو تسرب الأطفال والشباب الذين ينحدرون من آباء لا مستوى لهم ومن ذوي الدخل المحدود، تصل إلى 57،7%، بينما 30،9% منهم هي التي تصل إلى مستوى التعليم الأساسي، و6،6% للثانوي، وتنزل النسبة إلى 4،7% للوصول إلى التعليم العالي. بالمقابل فإن حظوظ الأبناء الذين ينحدرون من آباء مستواهم التعليمي عالي تصل إلى 79،7% للحصول على نفس المستوى الدراسي لآبائهم[17].

13 UNICEF (2014). lutte contre le décrochage scolaire et le redoublement- Rapport de restitution 2014.

14 معطيات المجلس الأعلى للتعليم مذكورة ضمن تقرير إدماج الشباب عن طريق الثقافة، المجلس الاقتصادي والاجتماعي (2012).. ص.36

15 Haut Commissariat au Plan : Note d'information relative au niveau et à l'évolution des dépenses de scolarisation des ménages marocains, octobre 2010.

16 Myriam Kettani et Séverine Euillet. (2012). Expérience paternelle en situation de précarité socio-économique : repérage et considération des spécificités. Enfances Familles Générations (revus internationale) (16).

17 Haut Commissariat au Plan, Op.cit.

الشباب الجامعي والفرص المهدورة: هشاشة التكوين والشغل

إن تناول وضعية الشباب الجامعي لا ينفصل عن طبيعة الرهانات التي خلقت من أجلها الجامعة في المغرب، "فالجامعة قد أصبحت، في المجتمع الحديث والمعاصر، من أهم وأخطر المؤسسات الاجتماعية، نظرا لما أنيط بها من مهام تربوية وعلمية وسياسية واقتصادية متعددة... يتمثل بعضها في تكوين وتأهيل العنصر البشري (الشباب) علميا ومهنيا وفكريا وسياسيا، رافدة بذلك مختلف القطاعات الإنتاجية والمجالات المتعددة في المجتمع بما تحتاجه من قوى بشرية مؤهلة للإسهام في مشاريع التنمية الاجتماعية الشاملة".[18]

إن مشكلة الجامعة في وقتنا الراهن تتجلى في أن كل المؤشرات والدلائل تجمع على حقيقة واحدة هي أن نظام التكوين المعتمد وخطط التشغيل المتبعة ومظاهر اللاتطابق بين مضامين التكوين وفرص التشغيل عوامل من شأنها أن تحكم على الخريجين في المغرب بالبطالة، وتطرح مشاكل شتى بالنسبة إلى اندماجهم السوسيو مهني، « فإن هذه الوضعية التي أصبح الجميع يعترف بها ويقترح لها الحلول تلو الحلول هي كثيرة الآثار ومتنوعة الانعكاسات فهي لا تقتصر من حيث آثارها وانعكاساتها السلبية على ما تمثله من مظاهر الإحساس بالاكتئاب والضياع والتهميش والدونية والخوف من المستقبل بالنسبة للخريج العاطل، بل تتعدى ذلك لتشمل مختلف عناصر ومكونات المجتمع..»[19].

إن التوجه التقليدي للجامعة كان ينحصر فيما سبق في مسألة أساسية تتعلق بتكوين أطر الدولة (الأساتذة، الموظفون...)، فمنذ تأسيس أول جامعة مغربية غداة الاستقلال، كان سوق الشغل يتميز بخاصيتين أساسيتين: وجود بطالة مرتفعة بين القوى النشيطة غير المختصة وحاجة كبيرة للقوى النشيطة المختصة بكل أصنافها ومستوياتها وذلك لسد حاجيات مختلف فروع النشاط داخل المجتمع المغربي.

غير أن التوجهات الرسمية الجديدة المحددة للسياسة التعليمية في فترة الثمانينات لم تتضمن بصفة مطلقة مهمة تكوين الأطر، واكتفت بإشارة عامة إلى « تكوين الإنسان» ومساهمة التعليم العالي في «ترقية المجتمع ثقافيا وفي تقدمه المستمر نحو اندماج أحسن ومسؤولية أكثر للإنسان. في حين ركزت بشكل جوهري على «إعداد المعلومات وتلقينها» و»الاستمرار في الإصلاحات التربوية والإدارية من أجل تدعيم إنعاش وملاءمة التعليم العالي للحاجات الحقيقية للبلاد»[20].

18 مصطفى محسن، الجامعة المغربية وإشكالية التنمية، مقال منشور بمجلة فكر ونقد عدد 65، يناير 2005 ص.70-61.

19 الغالي أحرشاو، أحمد الزاهر (2001)، البحث عن الشغل ومواجهة البطالة لدى خريجي الجامعة، دراسة منشورة بمجلة مركز الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس.

20 أنظر التقرير الذي قدمته وزارة التربية الوطنية إلى الدورة الثانية والأربعين للمؤتمر الدولي للتربية بجنيف تحت عنوان: حركة التعليم في المغرب خلال الفترة من 1990-1988. ص. 154-153.

ومن خلال هذه الصياغة لا تتضح وجود أية علاقة بين التكوين الجامعي وسوق الشغل علما بأن ظاهرة بطالة خريجي الجامعات كانت قد ارتفعت في أواخر الثمانينات، وشملت جميع الميادين والمستويات الدراسية الجامعية وأثرت في نظام التعليم بصفة عامة ونظرة المستفيدين منه بصفة خاصة. وهذا ما سجله أيضا المجلس الوطني للشباب والمستقبل بناء على نتائج بحث ميداني قام به في بداية التسعينات.[21]

والوضع الحالي لم يتغير كثيرا باستثناء ازدياد أعداد الشباب الحاملين للشهادات في مختلف التخصصات العلمية والأكاديمية بنسبة تقارب 150% مقارنة مع فترة التسعينات، كما ازداد الطلب على الشهادات مقارنة مع السابق، وهذا ما عززته أيضا نتائج الاستطلاع الأخير حول الشباب لسنة 2011.[22]

الجدول 1: الأسلوب الأفضل للحصول على الشغل حسب الاستطلاع 2011

الأولويات	النسبة%
الحصول على دبلوم	65
الحصول على علاقات	50
الحصول على تجربة	22
خلق أنشطة حرة	21
تعلم مهنة منذ الصغر	14
الذهاب إلى الخارج	12
تعلم التجارة (البيع والشراء)	11

Source : Les jeunes de 2011, la grande enquête l'Economiste- Sunergia

من خلال المعطيات الواردة في الجدول أعلاه يتبين أن الحصول على دبلوم ما يزال يعتبر اليوم أولوية بالنسبة إلى الشباب (نسبة 65%)، بيد أن المفارقة الأساسية تتجلى في كون غالبية الشباب يفقدون بالتدريج ثقتهم في الشهادات والدبلومات الجامعية كوسيلة للحصول على الشغل، إذ كلما تقدم بهم السن كلما تراجعت ثقتهم في هذه الشهادات، وهكذا نجدها قد انتقلت من 40% بالنسبة للفئة العمرية 17–16 سنة إلى 24% بالنسبة للفئة العمرية 29–25 سنة، في مقابل ذلك يرتفع يقينهم أن الحصول على العمل لا يتأتى إلا عن طريق العلاقات (بما فيها المحسوبية والزبونية طبعا) بنسبة تصل إلى 50% وهذا تحول قيمي جديد ودال يعكس حجم معاناة الشباب في الاندماج المهني.

وعموما فالتغير الحاصل اليوم لدى هذه الفئة في الاعتراف بأهمية الشهادة أو الدبلوم يعود في جانب منه إلى السياسات العمومية المنتهجة في مجال التشغيل « التي لم تواكب ارتفاع الساكنة

21 Le chômage des diplômés, janvier- février 1991, CNJA, Rabat.
22 Les jeunes de 2011, la grande enquête l'Economiste- Sunergia, Juin 2011.

النشيطة الباحثة عن الشغل، وذلك جراء التزايد الكبير في الفئة العمرية ما بين 15 و44 سنة والتي أصبحت تمثل 70،6% من الساكنة النشيطة سنة 2012. ومن يقارن هذه الأرقام بالحجم السنوي لإحداث مناصب الشغل لا يملك إلا أن يسلم بأن الاقتصاد الوطني سيبقى لمدة طويلة أمام استحالة موضوعية للتحقيق المتوازي للنمو والتشغيل الكامل لكل الباحثين عن عمل...»[23]

وهذا ما قد يفسر أيضا، في نظرنا، احتلال المغرب لمواقع متدنية في مؤشر التحاق الطلاب بالتعليم العالي، إذ كشف تقرير اليونسكو لسنة 2010 أن المغرب يحتل الرتبة ما قبل الأخيرة ب 12،3%، في حين سجل التقرير تقدم كل من لبنان ب 52،5%، وفلسطين 47،2% والأردن ب 40،7 %[24].

ويتخرج من الجامعات المغربية 30 ألف طالب في السنة من أصل 80 إلى 100 ألف طالب جديد يدخلونها في مطلع كل موسم دراسي. ويبلغ العدد الإجمالي للطلبة في المرحلة الجامعية بالبلاد 300 ألف[25]. وهو العدد الذي كان يتركز أساسا في كليات القانون والاقتصاد، ثم الآداب والعلوم، قبل أن يحدث تحول ملحوظ في السنوات الأخيرة نحو تفضيل علوم الهندسة والتجارة والتدبير. وتعاني الجامعات في العديد من جهات المملكة من الاكتظاظ بسبب نسب الرسوب المرتفعة التي كانت سائدة في مجموعة من المسالك والشعب. وهو ما يجد ترجمته في كون الجامعات تستقبل سنويا من 80 إلى 100 ألف طالب، ولا يحصل على شهادات التخرج إلا 30 ألف طالب في المتوسط، بسبب الفشل الدراسي والهدر[26].

شباب بقيم ثقافية جديدة:

المظهر الثالث لهذا التحول القيمي لدى الشباب يتجلى أساسا في الجانب الثقافي الذي لا يمكن فصله بالتأكيد عما يعرفه العالم اليوم من تغيرات شملت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، فتأثيرات العولمة لم تشمل الجوانب المادية فحسب، بل سلاحها الحقيقي موجه نحو «عقلية» الإنسان ونمط تفكيره وقيمه وثقافته بفضل حيازتها على منظومة معرفية شاملة، جاهزة ومنظمة، علاوة على الوسائل الكفيلة بنشر ذلك.

ومن هذا المنطلق يبدو أن الشباب المغربي في العقود الأخيرة قد عاش غزوا ثقافيا متواصلا منذ «الاجتياح» السمعي البصري لفضاء الأسرة المغربية إلى الثورة التكنولوجية وما صاحبها من وسائل اتصال وتواصل ذكية لم يعرفها العالم من قبل، والتي أضحت بفعل هذه العولمة في متناول كل الشرائح الاجتماعية لاسيما الشابة منها.

23 إدريس الكراوي (2014). إشكاليات التشغيل مقاربات وتوجهات. منشورات جمعية الدراسات والأبحاث للتنمية.

24 UNESCO (2010). Op.cit

25 بلغ عدد الطلبة برسم السنة الماضية 378093.

26 إدريس قصوري (2007), الإصلاح الجامعي بين التقييم والتقويم ، دراسة منشورة بمجلة مسالك في الفكر والسياسة والاقتصاد، عدد 6 .

وتؤكد العديد من الدراسات التي تناولت القيم الثقافية الجدية للشباب المغربي سطوة التكنولوجية الحديثة وتراجع المقروء، ف André Adam سنة 1963 من خلال بحثه حول وضعية القراءة عند شباب الثانويات توصل إلى كون 93% من التلاميذ كانوا يقرؤون بشكل منتظم خارج المقررات الدراسية، ونسبة 23% منهم "يلتهمون" كتابين في الشهر، في حين أوضحت دراسة (اليزمي) سنة 1998أن نسبة 4%،60 من الشباب يضعون القراءة في المرتبة الأولى، والتلفزيون في المرتبة الثانية بنسبة 7%،50، لكن في دراسة أخرى لسنة 2011 [27] احتلت القراءة المرتبة الخامسة في اهتمامات الشباب المتمدرس بعد الانترنيت والتلفزيون والأصدقاء. في الوقت الذي أكدت فيه معطيات لدراسة حديثة أن فقط نسبة7% من عينة تضم 1365 شاب من 13 مدينة مغربية لم تقرأ إلا كتابا واحدا خلال 5 سنوات الأخيرة.

تعكس هذه المعطيات واقع عزوف الشباب عن القراءة في السنوات الأخيرة وتحولهم إلى وسائط جديدة، حيث نلمس «تغيرا في نمط التعامل مع النصوص المكتوبة، وأصبحت شاشة الحاسوب إطار بصريا لقراءة النصوص المكتوبة، وبدأ طلبة التعليم الثانوي والعالي يتخلون، بالتدريج عن قراءة المطبوعات والأدب الكلاسيكي لصالح نمط جديد من القراءة «تحت الطلب»، مع ميل واضح للصحافة والمواقع الرقمية، فضلا عن أن جل الأبحاث التي ينجزها الشباب تتم بفضل الانترنيت...»[28]. ناهيك عن تزايد انتمائهم إلى مواقع التواصل الاجتماعي، إذ أن أكثر من 70% من الشباب ما بين 18 و34 سنة هم «زبناء» دائموان للفايسبوك.

وفيما يتعلق بالثقافة الدينية لدى الشباب المغربي تؤكد المعطيات أن هناك نموا متزايدا في اهتمام هذه الفئة بالمسألة الدينية، وأن هناك تحول نوعي في طبيعة تعاطي الشباب مع الدين. فبعدما كان فقط حوالي 8% من الشباب يصلون بانتظام، و26% مناسباتيا سنة 1980 (الطوزي، 1980)، جاءت دراسة رحمة بورقية سنة 1992 لتبين أن 54% من الشباب يصلون، و50 % منهم يؤدون الصلاة بانتظام، في الوقت الذي أكدت فيه معطيات دراسة رشيق سنة 2007 أن 65% من الشباب يؤدون الصلاة بانتظام، و51 % منهم يحرصون على أداء صلاة الجمعة[29].

أما بخصوص الموقف من الحجاب فقد عرف هو الآخر نفس التطور لدى الشباب، ففي دراسة محمد شقرون سنة 1989 اعتبرت نسبة 36% من المستجوبين أن الحجاب واجب[30]، وفي دراسة لاحقة سنة 1996 توصل الباحثون إلى أن 58% من الشباب لهم مواقف مؤيدة للحجاب[31]، بيد أنه

27 Les jeunes de 2011, Op.cit

28 المجلس الاقتصادي والاجتماعي (2012). إدماج الشباب عن طريق الثقافة. ص.21

29 محمد العيادي، محمد الطوزي، حسن رشيق (2013). الإسلام في الحياة اليومية بحث حول القيم والممارسات الدينية بالمغرب، منشورات Les Editions Chemins des Croisée la البيضاء.

30 Mohamed Chekroun Jeux et enjeux cultuels au Maroc

31 Rahma Bourqia et autres, Les jeunes et les valeurs religieuses

في سنة 2007 ستصل هذه النسبة إلى 8%، 76 [32].

إن تحليل معطيات الثقافة الدينية للشباب المغربي اليوم تبين أن ممارسة الشعائر الدينية من قبل هذه الفئة لا يختلف كثيرا عن الفئات المتقدمة في السن، في المقابل أنها أكثر ممارسة لهذه الشعائر من شباب الأمس. إنها مرحلة جديدة في التعاطي مع القيم الدينية من قبل الشباب تعكس تحولا جليا بين الأمس واليوم، كان حريا على السوسيولوجيا والسوسيولوجيين مواكبته من الناحية العلمية لما يشكله من بؤر شديدة التوتر إزاء ما يعتمل من نقاشات وجدالات على الساحة السياسية والاجتماعية حول واقع الممارسة الدينية لدى الشباب.

إن تحديد مسار هذه التوجهات تساعد حتما على فهم ديناميكية التحول الحاصلة على صعيد القيم والتفكير والسلوك، كما أن الأمر يتطلب مزيدا من الدراسات والأبحاث للتعمق في فهم دلالات هذا التحول، ولاستجلاء بعض مظاهر الغموض التي تكتنف علاقة الشباب عموما بالدين، وإلى أي حد تنعكس هذه القيم الدينية على الممارسات السلوكية للشباب، وهل هناك نوع من الازدواجية كنسق موجه لسلوكات الشباب في مجتمع يتحول بسرعة قياسية وفي ظروف سوسيواقتصادية وسوسيوثقافية معقدة؟

2-3. مظاهر التحول من الهشاشة إلى الهامش

بداية لابد من التمييز في هذا المحور بين مفهومين حديثين في السوسيولوجيا المعاصرة وهما الهشاشة Précarité –Vulnérabilité والهامشية Marginalité، فإذا كانت الهشاشة تُستعمل لتحديد فئات اجتماعية خاصة تعاني، بحسب الحالات، من درجة معينة من الفقر، أو احتمال التحول إلى فئات فقيرة، أو تعيش عدم استقرار سوسيواقتصادي. فإن الباحثة Maryse Bresson حاولت تناول أبعادها وجوانبها المتعددة في كتابها سوسيولوجية الهشاشة[33]، إذ تشير إلى كونها مقولة عامة تشمل مختلف الوضعيات الاجتماعية التي تنطوي على «مشكلات»، والتي لا تختلف، في تحديدها العام، عن وضعيات الفقر، أو الإقصاء. كما تشير في جانب آخر إلى وضعية الجماعات التي تعاني أساسا من نقص على مستوى الدخل، و الولوج إلى الشغل، وإلى التربية وإلى الصحة والخدمات الأساسية... وخلاصة القول إن الهشاشة الاجتماعية، برأي الباحثة، تعني إجمالا وجود احتمال تعرض وضعية اجتماعية إلى تدهور ما كيفما كانت أشكاله.

في المقابل يشير مفهوم الهامشية إلى تلك الفئات التي تقع على هامش البناء الطبقي للمجتمع، ويعود هذا المفهوم إلى إسهامات الاتجاهات السوسيولوجية الحديثة التي برزت في دول أمريكا اللاتينية، وقد ابتكرها علماء الاجتماع بالمكسيك نظرا لاتساع نطاق الهامشيين من مختلف الفئات

32 محمد العيادي، محمد الطوزي، حسن رشيق (2013). الإسلام في الحياة اليومية، مرجع مذكور.

33 **Maryse Bresson (2010)**. Sociologie de la précarité: Domaines et approches. Paris, Ed. Armand Colin.

التي تعانى البطالة والفقر وانعدام المشاركة في الأحزاب السياسية واستبعادهم من أجندة السياسات الاقتصادية. . .[34]

والهامشية كظاهرة سوسيولوجية تعد أحد أبرز الأعراض المتصلة بالبيئات الاجتماعية المتخلفة، وهي التي تعبر عن اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع، وصعوبة التكيف الاجتماعي لبعض فئاته. فمن هو الشخص الهامشي وفق ما تطرحه النظريات السوسيولوجية؟

يتصف الشخص الهامشي بعدد من الخصائص التالية[35]:

1. الشخص الهامشي هو ذلك الذي يحتل موقعا متدنيا في إطار نظام التدرج الاجتماعي؛
2. هو كل إنسان يشعر بالغربة في وطنه؛
3. هو الذي لا يتمكن من الوصول إلى حقوقه؛
4. هو خارج فعالية السلطة أو الدولة وليس لديه أي تأثير في المجتمع، وليس له دور محدد.

وفي تحديدنا للشباب الهامشي يمكن القول»إنه فئة اجتماعية ذات خصائص عمرية محددة، مبعدة من العملية الإنتاجية، لا تساهم في المجال السياسي، تمارس مهنا توصف بالهامشية في المدن، وتعتقد أن الدولة قد تخلت عنها، بل إنها تمارس ضدها القهر والقمع والعنف أحيانا، ولهذا نجد هؤلاء الشباب يخربون ممتلكات الدولة في كل حركة احتجاجية، ويحلمون بالهجرة خارج الوطن».[36]

ومغربيا يمكن القول أن انتقال الشباب إلى الهامش تعتريه الكثير من مظاهر الغموض، لكن الكل يجمع اليوم على تواجد شرائح هامة من الشباب على هامش المجتمع غير معنية بالكثير من التحولات التي تقع من حولها، وكذا الخطابات الرامية إلى دفعها إلى المشاركة والانتصار لقيم المواطنة.

الشباب والمشاركة: تراجع أم تصور جديد لقيم المواطنة

على عكس كل أشكال التضييق التي مورست بالأمس في حق الشباب في ممارسة الفعل السياسي والمشاركة في كل القضايا التي تهم الشأن العام، نلمس تحولا كبيرا اليوم، وإرادة واضحة للدولة في إشراك الشباب في السياسة، وفي الحوار العمومي، وفي المساهمة المجتمعية، وفي الاستشارات الانتخابية، وفي المؤسسات التمثيلية. . .، لكن يبدو من خلال المعطيات، التي سندرج بعضها

34 **عبداللطيف كداي (2011)**. العنف لدى الشباب الحضري. المجلة المغربية للسياسات العمومية - العدد 7، ص.151

35 **إسماعيل قيرة (2004)**. علم الاجتماع الحضري ونظرياته، منشورات جامعة منتوري قسطنطينة، ص. 36.

36 **عبدالحليم مهورباشة**، الدولة وتهميش الشباب، مجلة الباحث الاجتماعي، العدد 10، شتنبر 2010، ص.235.

تباعا، أن الدولة وجدت نفسها أمام أزمة مشاركة ناتجة عن تراكمات الماضي بكل مآسيه، وعن بقايا نهج الانغلاق لدى الجهاز الإداري، ونظرة الريبة إلى الشباب من طرف بعض النخب في الأحزاب والمؤسسات والجماعات المحلية... في مقابل استمرار هذا الشباب في التعامل بنفس منطق الشك والريبة وعدم الثقة في المؤسسات والتنظيمات بمختلف أشكالها.

وبحسب نتائج البحث الوطني حول القيم الذي أنجزه مجموعة من الخبراء والباحثون الجامعيون في إطار تقرير الخمسينية سنة 2005، فإن نظرة الشباب موضوع الدراسة للقيم المرتبطة بالمشاركة في الحياة السياسية كانت عموما على الصورة التالية[37]:

- 11% من عينة الشباب منتمون لأحزاب أو نقابات أو جمعيات: 2% للأحزاب، 2% للنقابات، و7% للجمعيات وهي على الخصوص جمعيات الأحياء والتنمية.
- و10% عبروا عن رغبتهم في الانتماء لحزب، و12% في الانتماء لنقابة، بينما 32 إلى 41% رغبت في الانتماء لجمعيات أو تعاونيات.

وفي نفس المنحى تقريبا سار البحث الوطني حول الشباب الذي أنجزته المندوبية السامية للتخطيط سنة 2012 لتؤكد المعطيات السالفة الذكر كما هو مبين في الجدول التالي[38]:

الجدول 2: مشاركة الشباب في الشأن العام

	De façon régulière	De façon non régulière	Jamais
Membre actif dans un parti politique	**0,5 %**	**0,5 %**	**99,0 %**
Membre actif dans un syndicat	**0,8 %**	**0,5 %**	**98,7 %**
Participation aux élections	**35,3 %**	**14,0 %**	**50,7 %**
Participation aux rencontres d'un parti politique ou syndicat	**1,6 %**	**2,5 %**	**95,9 %**
Participation aux manifestations sociales ou grèves	**1,1 %**	**2,5 %**	**96,4 %**
Membre actif dans une ONG	**2,1 %**	**0,9 %**	**97,0 %**
Participation à des activités de bénévolat	**2,8 %**	**5,7 %**	**91,5 %**

Source : Haut Commissariat au Plan (2012). Enquête nationale sur les jeunes

37 Nadia BERNOUSSI(2005). L'évolution du processus électoral au Maroc, Le rapport de la Cinquantenaire de l'Indépendance du Royaume du Maroc.

38 Haut Commissariat au Plan (2012). Enquête nationale sur les jeunes en 2011.

من خلال تمعن المعطيات الورادة في الجدول أعلاه التي تهم فئة عمرية تمتد من 18 إلى 44 سنة[39] يتبين أن واقع المشاركة لديها يبدو «كارثيا» بجميع المقاييس، إذ لا تتجاوز نسبة الانخراط في الأحزاب 0،5% وفي النقابات 0،8% وبالنسبة للجمعيات 2،1% وأنشطة التطوع 2،8%... هذا بالنسبة إلى شريحة عمرية عريضة نسبيا. كيف سيكون عليه الحال لو اقتصرنا على الفئة الشابة سواء بالمعيار العمري المعتمد لدى هيئة الأمم المتحدة (15–24 سنة) أو المعيار المعتمد على مستوى جامعة الدول العربية (18–30)؟ في كلتي الحالتين ستعكس النتائج المحصل عليها تحولا عميقا وجذريا لمنظور الشباب وانخراطه في قضايا الشأن العام أو لنقل قضايا المجتمع الأساسية.

وإذا كانت المعطيات المتعلقة بالمشاركة الحزبية والنقابية مفهومة تماما كنتيجة منطقية للفراغ القاتل الذي ساد إلى الآن علاقة الشباب بالحياة السياسية عموما، كما أنها أيضا نتيجة لتراكمات تخويف الشباب من العمل الحزبي والسياسي عبر تاريخ المغرب، لكن الأكيد أيضا أن المؤسسات الحزبية والنقابية مسؤولة، على ما يبدو، عن هذا التدني في اهتمام الشباب والهوة الساحقة التي تفصله عنها. ومن بين الأسباب التي يمكن أن تكون قد ساهمت في تشويه الصورة الحزبية والنقابية لدى الشباب ما يلي:

- تفريخ أحزاب بدون مبررات سياسية أو إيديولوجية حتى أصبح المغرب يعج بما يفوق 36 حزبا لم يعد الشباب المغربي يميز بين ألوانها وبرامجها ورموزها...
- غياب الديموقراطية الداخلية بهياكل الأحزاب مما ينفر الفئات الشابة من الانخراط أو يرمي بها خارج الإطارات الحزبية.
- شيخوخة النخب والقيادات الحزبية واستمرارها في مواقعها حتى الموت البيولوجي وظهور بعض مظاهر العائلية والقرابة في توزيع المواقع الرسمية والتي تدفع الشباب إلى اليأس من إمكانية احترام الكفاءة والتجربة.
- موسمية الأحزاب وتهافتها على الشباب خلال مرحلة الانتخابات وهي التي لا تتواصل معه وتهمشه طيلة الوقت، علاوة على الحضور الباهت لقضايا الشباب في برامجها ومبادراتها....

إن وجود تفسير منطقي وواضح بشأن موقف الشباب من المشاركة السياسية يقابله غموض كبير مرتبط بتدني مستوى المشاركة الجمعوية وغياب قيم التطوع لديه، مما يطرح العديد من التساؤلات بصدد هذه المفارقة في الوقت الذي ارتفع فيه عدد الجمعيات بالمغرب ليقارب 90 جمعية على امتداد التراب الوطني، تراجعت نسبة المشتغلين في الحقل الجمعوي من الشباب وتراجع

39 يبدو أن الأمر لا يتعلق بفئة الشباب المحصورة محليا ب 15- 30 سنة وأمميا ب 15 -24 سنة بل بتصور خاص للمندوبية السامية للتخطيط التي عملت على تمديد هذه الفئة لتتجاوز السقف المحدد

معها أعداد المتطوعين[40].

صحيح أن هذا التراجع ليس محليا فقط، بل المعطيات العالمية تؤكد لنا التراجع المستمر في أنشطة التطوع، ففي سنة 1988 كان يقدر عدد المتطوعين ب 265 مليون، ليتراجع سنة 2010 إلى حوالي 134 مليون متطوع، هذا في الوقت الذي يزداد فيه الطلب على التطوع، مع الزيادة الطبيعية في النمو الديمغرافي العالمي[41]. وهذا ما دفع هيئة الأمم المتحدة من خلال برنامج الأمم المتحدة للمتطوعين إلى دق ناقوس الخطر واتخاذ مجموعة من القرارات للرفع من وتيرة أنشطة التطوع في العالم، والإعلان عن سنة 2001 كسنة دولية للتطوع وفقا للقرار الأممي رقم:-17 52.

وإذا كان المجال هنا لا يتسع لسرد مزيد من التفاصيل حول هذه القضايا المرتبطة بقيم المشاركة لدى الشباب، إلا أنه يحق علينا أن نتساءل أين هو الشباب اليوم ما هي اهتماماته، وما هي قضاياه الجديدة؟

وحيث إن الإجابة عن هذا السؤال قد تم تداول جزء منها بشكل أو بآخر فيما سبق من معطيات هذا المقال، فإن الشكل التالي قد يسلط الضوء على بعض تفاصيل الجواب:

الشكل1: القيم الأكثر أهمية في حياة الشباب المغربي بحسب دراسة المندوبية السامية للتخطيط (2012)

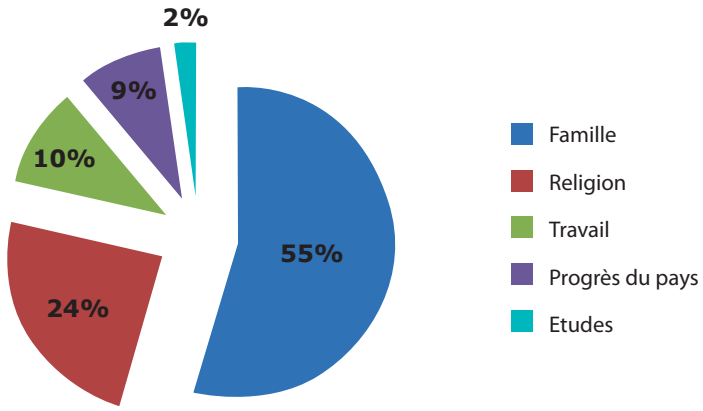

يبدو أن الشباب المغربي من خلال المعطيات أعلاه أكثر اهتماما بالعائلة (55%) وقضايا التدين (24%) مقارنة بما يتعلق بقضايا الوطن (9%) والدارسة (2%)... هل هو نكوص لقيم العائلة

40 Carrefour Associatif(2010) Etude sur le Volontariat et Bénévolat au Maroc : l'Engagement bénévole et volontaire des jeunes et l'action associative au Maroc. Disponible sur site web : http://www.unicef.org/morocco/french/Etude_Benevolat_Volontariat.pdf

41 Nations Unies (2013). Rapport Annuel : Volontaires pour le monde que nous voulons. Disponible sur site web : http://www.unv.org/fileadmin/docdb/pdf/2014/corporate/UNV-FR_RA2013_web.pdf

والدين وابتعاد عن كل يهم قيم المواطنة؟ إن لفت الانتباه لهذه التحولات القيمية لدى الشباب يحيلنا بالضرورة إلى دراسة العلاقة بين الشباب وتفاعلاته مع باقي المؤسسات الاجتماعية وفق مقاربة تفاعلية كان قد أشار إليها Goffman في كتاباته عن التفاعل الاجتماعي، ليؤكد أن القيم تتخذ طابعا أكثر استقرارا لدى الأفراد عندما يتم إضفاء طابع مثالي على تعبيرات واقعية. وهو الأمر الذي يمكن الفاعل، أثناء التفاعل، من إحياء القيم الأخلاقية للجماعة. فالأشخاص في تفاعلاتهم يريدون الاقتراب من المكان المقدس للقيم الاجتماعية السائدة[42]، الذي لن يكون في هذه الحالة إلا المجال الأسري أو المجال الديني. لكن عندما نحلل القيم لدى الشباب من زاوية التفاعل كما تحدده الإتنوميتودلوجيا، بمنح مزيد من الأهمية للبعد الميكروسوسيولوجي. فإننا نجد تفاعلات هؤلاء الشباب فيما بينهم وبين غيرهم، محكومة بتأويلهم للوضعيات الاجتماعية التي يعيشونها.

فقد بينت أطروحة جامعية حول شباب الأحياء الشعبية[43] بفرنسا كيف أن الفردنة – l'individu lisation التي ترتبط بأزمة الروابط الاجتماعية، قد مست قيم الشباب على نحو قوي بحيث أن قواعد السلوك المشتركة أصبحت أقل وضوحا. فالشباب أصبح يواجه صعوبات تتعلق ببناء حدود أو معايير للتصرف وفق الضوابط التي يقبلها أغلب أفراد المجتمع. مما يعني أن هذه الفئة الاجتماعية أصبحت تضع في قلب اهتماماتها قيم الفردانية. ومن هذا المنطلق يبدو من الضروري

شباب الهامش بين قيم العنف والمخدرات

أظهرت عدد من المؤشرات أنه في خضم هذا التحول، بالقدر الذي تتنوع فيه احتياجات الشباب كفئة رئيسية في المجتمع، تتنوع أيضا مشاكله وأزماته، مما يفسر إلى حد كبير مشكلات سوء التكيف والشعور بالنقص والإحباط والقلق والكآبة والتوتر والغضب... وهي سمات باتت مميزة لفئات من الشباب الهامشي كما أصبحت تمثل «أزمة» حقيقية لهذه الفئة التي تترنح بين ازدواجية العنف والإدمان كتعبير عن قيم جديدة رافضة للاندماج... فهل يؤثر تنامي الإحباط في أوساط الشباب في زيادة معدلات العنف والجريمة وتدمير الذات (المخدرات – الانتحار)؟ وهل لذلك علاقة بالأنماط السائدة في التربية وأنساق الهشاشة الاجتماعية؟

يعتبر العنف لدى الشباب في هوامش المدن من أهم المشكلات التي تواجه الدولة في السنوات الأخيرة، فقد كشفت الإحصائيات الرسمية الصادرة عن المديرية العامة للأمن الوطني أن جرائم العنف باتت تحتل في العقد الأخير المرتبة الأولى في جرائم الشباب بعدما كانت السرقة في صدارة الجرائم لدى هذه الفئة في عقد التسعينات. كما أكدت بعض الدراسات التي أنجزت على الصعيد

42 محمد راضي . (2014). التفاعل الإجتماعي عند إرفين جوفمان . إربد: عالم الكتب الحديث، ص.60.

43 Chafik HBILA. (2012). *Jeunes de quartiers populaires et politiques de jeunesse.Adhésion et résistance des jeunes.* Thèse en sciences humaines et sociales, Université de Rennes 2 Haute Bretagne – Université européenne de Bretagne. Disponible sur le Site Web : http://tel.archives-ouvertes.fr/

الوطني أن العنف هو ظاهرة حضرية بامتياز، إذ يزيد بمعدل 12،7% مقارنة بالوسط القروي. كما أنه يخص فئة الشباب تحديدا سواء باعتبارهم ضحايا أو معتدون، إذ أن من أصل 10 حالات من مرتكبي العنف نجد 6 منهم شبابا لا يتجاوز عمرهم 35 سنة. ويتزايد العنف في أوساط الشباب كلما اشتدت الهشاشة الاجتماعية والاقتصادية[44].

مما سبق ينبغي التأكيد على أن هناك عوامل عديدة ساهمت في تنامي العنف لدى الشباب، منها ما هو اقتصادي مرتبط بتدهور المستوى المعيشي وقلة فرص الشغل، حيث إن «إقصاء الشباب عن سوق الشغل يعد السبب الاقتصادي في اغترابهم وانعزالهم عن البناء الاجتماعي، الذي يولد لديهم ثقافة فرعية، تختلف عن ثقافة الجماعة، قد تكون عدوانية تجاه أولئك الذين صدوهم، فالانعزال الاجتماعي ينجم عن طريق اقتصاد غير وثيق الصلة بظروف المجتمع وفئاته المختلفة وتحديدا الفئة النشيطة من السكان». [45]

وفي هذا الإطار تبرز بعض الأبحاث التي أنجزت حول عدد من الطروحات المرتبطة بالعنف لدى الشباب، فالشعور بالنبذ والتهميش من لدن المجتمع الذي لم يوفر لهذه الفئة الشروط اللازمة لممارسة حياة كريمة، مما دفعها إلى تبني قيم جديدة أكثر عنفا وتصلبا، تتميز بسيادة اللغة الحركية على جميع المستويات، حيث يعاني أفرادها الحرمان المادي والمعنوي. فانتشار الأمية في أوساط هذه الفئات أو تدني مستواها التعليمي تجعلها تعيش في غيتو لغوي Ghettos linguistique نتيجة ضعف قدرة أفرادها على الترميز Codification أي التعبير الرمزي عن رغباتها وتطلعاتها وفي علاقتها بالآخرين والمجتمع عموما[46]. لذا يقول Bernstein الذي قام بتحليل ظاهرة الفقر اللغوي لدى الفئات المهمشة والمحرومة، بأن لغتهم تتميز بنوع من التصلب والقطعية و»العنف اللفظي» وتظل مرتبطة بالواقع المحسوس وغياب العلاقات السببية[47].

ومن هذا المنطلق فإن سلوك أبناء الفئات المحرومة والمهمشة يغلب عليه طابع الحركة، باعتباره الأسلوب الذي يتناسب مع «قيمهم الجديدة» وشخصيتهم وظروفهم الاجتماعية، فهو يتميز حسب حجازي «بسيادة اللغة الحركية في التعامل مع العالم والآخرين، وسرعة إفلاس الحوار الذي يتحول إلى اشتباك بالأيدي مرورا بالشتائم والمهاترات... والعجز عن عمليات التفكير المجرد[48]، ومما سبق ينبغي التأكيد على كون العنف اللفظي يسبق العنف الحركي (المادي)، بل يعتبر الثاني مكملا للأول.

44 Voir les résultats d'étude de la violence à l'égard des femmes au Maroc, Haut Commissariat au Plan, Janvier 2011.

45 علي بوعناقة (2007): الشباب ومشكلاته الاجتماعية في المدن الحضرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص.116.

46 Estelle Liogier, La variation stylistique dans le langage d'adolescents de cité, In revue « Langage et société » N° 128 / 2009, Site web : http://www.cairn.info/revue-langage-et-societe.

47 Basil Bernstein (1975) : Langage et classes sociales. Codes sociolinguistiques et contrôle social, présentation de Jean-Claude Chamboredon , Paris, Ed. Minuit. P.101.

48 ذكره محمد عباس نورالدين (2004). انحراف الأطفال والشباب، شركة النشر والتوزيع المدارس، البيضاء، ص.13.

وهذا ما ذهب إليه أيضا الباحث الكندي Maurice Cusson حين أعتبر أن الفعل العنيف الذي يقدم عليه الشاب يحمل في طياته عدة دلالات، فبالنظر إلى التهميش والحرمان الذي يعانيه، وشعوره بالحرمان والنبذ والإهمال من طرف الأسرة والمجتمع بصفة عامة، ينتابه شعور بالملل والرتابة، وفعل العنف هو الذي يخرجه من هذه القوقعة ويعطي لوجوده معنى، ويجعله يحقق انتصارات وهمية وإن كانت على حساب الآخرين[49]. ويعتبر البعض أن النزعة التدميرية لدى الشباب ما هي إلا انعكاس لحالة الخوف الدائمة التي تصاحبه، فيحاول التخلص من هذا الشعور بإثارة الخوف لدى الآخرين، وهذا ما قد يفسر اللجوء المتعمد إلى التخريب، إثارة الفوضى في الشارع، الاعتداء على الآخرين... دونما هدف محدد. إنه نوع من الخطاب – بحسب تعبير عالم النفس الفرنسي Lacan – الذي يوجهه للآخرين من أجل الاعتراف به كإنسان، فكأنه يقول لهم : إذا لم أحظ بحبكم واهتمامكم فلتخافوا مني على الأقل، إنه حوار عنيف مع الآخر إذن، يحاول من خلال انتزاع الاعتراف به كإنسان[50].

والعنف في أوساط الشباب أصبح ملازما لظاهرة الإدمان على المخدرات، إذا أنهما يشكلان اليوم أخطر المشكلات التي تواجه الشباب بصفة عامة والمغربي على وجه الخصوص في العقود الأخيرة، تعبران بالملموس عن الخلل البين في الأنظمة التربوية والقيمية والاجتماعية، وتطرح تحديات حقيقية على مختلف الفاعلين والدارسين لبحث أنجع السبل للحد من تفشي هاتين الظاهرتين.

مغربيا يمكن القول إن الدراسات والأبحاث المنجزة في السنوات الأخيرة حول الإدمان على المخدرات تبقى غير كافية لرصد الظاهرة وتتبعها، فقد خلص التقرير الذي أصدره مركز الأبحاث والدراسات حول البيئة والمخدرات في المغرب سنة 2010، إلى كون أن نسبة التعاطي للمخدرات في صفوف المراهقين والشباب في ازدياد مطرد رغم جهود التوعية التي تبذلها الدولة والمجتمع المدني للحد من هذه الآفة[51].

وأشار التقرير المذكور إلى أن ما يقارب 26% من الشباب يتعاطون بشكل منتظم لأشكال متعددة من المخدرات، وأن حوالي 90% منهم لا يتجاوز سنهم 25 سنة، 63% من الذين يتابعون دراستهم، بحيث تبلغ نسبة التعاطي في المراحل التعليمية الدنيا والمتوسطة (الإعدادي والثانوي) 10% وتتضاعف في أوساط الطلبة في الجامعات والمعاهد العليا.

49 Maurice Cusson (1989) : Délinquants pouquoi ?Ed. Hurtubise , Bibiothèque québécoise, Canada, P.93-94.

50 Op.cit. P.96.

51 Abdellah Ounnir(2011). Rapport sur l'usage de drogues et le droit au Maroc, Association de Lutte Contre le Sida (ALCS)- Rabat

وفي دراسة أخرى قامت بها الجمعية المغربية لعلم التسممات العيادية[52]، على عينة تضم 6231 من التلاميذ موزعين على 30 مؤسسة تعليمية يتراوح سنهم ما بين 12 و18 سنة، 54% منهم من الإناث و46% من الذكور، نشرت نتائجها خلال سنة 2011[53]، تم التوصل خلالها إلى ما يلي:

- 17% من الذكور المستجوبين سبق وأن تعاطوا المخدرات على الأقل لمرة واحدة مقابل 4،2% بالنسبة للإناث.
- يتحدد سن التعاطي بالنسبة لغالبية أفراد العينة في الشريحة العمرية 16 18- سنة بالنسبة للذكور بنسبة تقدر ب 71%.
- فيما يتعلق بنوعية المخدرات المستهلكة فقد أبانت الدراسة على كون 50% يتعاطون للقنب الهندي (Cannabis) بكل أنواعه، 35% للحبوب المهلوسة (القرقوبي)، 12% للكوكايين، و3% للهروين.
- أغلبية الشباب يفضلون تعاطي المخدرات برفقة الجماعة (80%)،
- 66% من الشباب المتمدرس يحصل على هذه المخدرات من السوق السوداء لاسيما المتواجدة في مناطق قريبة من المؤسسات التعليمية.

وتبقى الدراسة الشاملة التي أجرتها وزارة التربية الوطنية ووزارة الصحة في إطار ما يعرف ببرنامج MedSPAD [54]، من أهم الدراسات التي سلطت الضوء على واقع استهلاك المخدرات في أوساط الشباب المتمدرسين، والتي نشرت نتائجها في يونيو 2011[55]، وتشير أهم النتائج إلى ما يلي:

- 11،8% من الشباب الذكور يتناولون الكحول بصفة منتظمة مقابل 4% لدى الإناث.
- 13،9% من الذكور صرحوا أنهم سبق وأن تناولوا الحشيش من نوع القنب الهندي 8،5% بصفة منتظمة، في مقابل 2،5% لدى الإناث منهن 1،3% بصفة منتظمة.
- 4،8% من الذكور و3،2% من الإناث من مجموع أفراد العينة تناولوا ولو مرة واحدة الأقراص المهلوسة، و2،7% من الذكور و1،7% من الإناث ما يزالون يتعاطون لهذا النوع من المخدر.

52 Société Marocaine de Toxicologie Clinique et Analytique (SMTCA).

53 Revue toxicologie Maroc, N°8, 2011, Publication officielle du Centre Anti Poison du Maroc, Ministère de la santé.

54 أجريت هذه الدراسة في 14 أكاديمية جهوية (34 مدينة مغربية)، اشتملت على 192 فصل دراسي (22 في الوسط القروي و170 في الوسط الحضري) موزعة على بحسب المستويات الدراسية كالتالي: 25 فصل يخص تلاميذ الثالثة إعدادي، 77 فصل للجدع المشترك (الأولى ثانوي)، 66 فصل للأولى باكالوريا، و24 فصل يخص الثانية باكالوريا، بما يعادل 6371 تلميذا تتراوح أعمارهم ما بين 15 و17 سنة (52% إناث و48% ذكور)، وأنجزت بتمويل خاص من شبكة MedNet الأوربية المتعلقة بالتعاون في مجال الوقاية من المخدرات ومحاربة الإدمان في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وكذا مجموعة Pompidou.

55 Usage de drogues en milieu scolaire Marocain, Rapport MedSPAD (Mediterranean School Survey Project on Alcohol and Other Drugs., Juin 2011.

- 2% من الذكور و0،5% من الإناث من مجموع أفراد العينة سبق وأن تناولوا مادة الكوكايين، و1،1% من الذكور و0،4% من الإناث لا يزالون يتعاطون لهذه المادة.
- 1،1% من الذكور و0،5% من الإناث من مجموع أفراد العينة سبق وأن تناولوا مادة الكراك Crack أحد مشتقات مادة الكوكايين، و0،7% من الذكور و0،1% من الإناث لا يزالون يتعاطون لهذه المادة.
- 5،8% من الذكور و2% من الإناث من مجموع أفراد العينة سبق وأن تناولوا أنواعا أخرى من المخدرات منها الهروين وبعض الأشكال التقليدية الأخرى.
- بالنسبة لمتوسط السن فهو يختلف بحسب نوع المادة: الكحول :15 سنة، القنب الهندي 15،4، الكوكايين والمخدرات القوية 16،1 سنة.

من خلال ما سبق يمكن القول إن ظاهرة التعاطي للمخدرات في المغرب عرفت تزايدا ملحوظا في السنوات الأخيرة لاسيما في أوساط التلاميذ والشباب المتمدرس عموما، ويُعزى الارتفاع المسجل في نسب التعاطي للمخدرات بكل أنواعها في أوساط الشباب والمراهقين في جانب منه إلى عدم ملاءمة القوانين والتشريعات الزجرية المعمول بها مع الأساليب الترويجية الحديثة لهذه السموم بين التلاميذ والطلبة التي باتت تشكل خطرا حقيقيا يهدد مستقبل جيل بكامله.

إن ظاهرة التعاطي للمخدرات في أوساط الشباب المغربي تشكل في الواقع أحد أهم الصعوبات التي تواجهها الدولة حاليا، وذلك لما يترتب على هذه الآفة من عنف وجريمة وسوء تكيف اجتماعي وهدر لطاقات الشباب، الأمر الذي يؤشر على مرحلة جديدة لقضايا الهامش الاجتماعي المغرق في العنف والانحراف، حيث إن وضعية الهشاشة والإقصاء الاجتماعي تؤثر سلبا على سلوك الشباب، دافعة إياهم إلى السقوط في مصيدة الإدمان كملاذ أو في، بعض الأحيان، كاختيار واعي وقصدي لمسار ضمن مسارات أخرى ممكنة في إطار من المقارنة بين نماذج معيارية وقيمية مطروحة داخل المجتمع.

يمكن القول أنه ثمة تحولات قيمية تمس الحقل الاجتماعي بالمغرب، وأن قيما جديدة أصبحت ذات جاذبية بالنسبة للشباب والمراهقين آخذة في التبلور خاصة عندما تعجز المؤسسات التقليدية للتنشئة الاجتماعية عن الضبط الأخلاقي لأعداد كبيرة من الناشئة، كما أن غياب البيئات التمكينية التربوية اللازمة، وفي ترابط مع أشكال الحرمان المادي والرمزي الذي يرخي بظلاله على الحياة اليومية للشباب، يجعل من ثنائية العنف والمخدرات حتمية اجتماعية، وبمثابة إفراز موضوعي للوضعية الهامشية التي يعشيها الشباب وما تخلفه من آثار سلبية على الذات والآخر.

خلاصة:

إن المشاكل الناجمة عن التحولات الاجتماعية والقيمية لدى الشباب المغربي لا يمكن فصلها عن مجمل تلك التحولات التي يعرفها المجتمع المغربي على جميع الأصعدة، حيث تتداخل بالتأكيد عوامل متعددة في محاولة تفسيرها وقراءتها ورسم معالمها وتجلياتها، الأمر الذي يجعلنا أمام مداخل متعددة تستدعي مقاربات منهجية فريدة من نوعها للإلمام الشامل بجوانب الإشكاليات المطروحة على هذا المستوى...

ولا شك أن القارئ أدرك من خلال ما سبق شساعة هذا الحقل، لاسيما عندما نقرن هذه التحولات بفئة اجتماعية تمثل رأس مال المجتمع ومصدر قوته بما تمتلكه من إمكانات وطاقات وقدرات على التفاعل والاندماج والمشاركة في قضايا المجتمع الأساسية، وبما لها من دور في عملية البناء والتغيير والتجديد، فالشباب أول الشرائح التي تنادي بإسقاط القيم التقليدية المعرقلة لنمو المجتمع وتقدمه وإحلال قيم جديدة، كما أنه مصدر التغيير الثقافي والاجتماعي والسياسي في المجتمع عامة.

لذا من الضروري بذل جهد علمي ومعرفي في الظرف الراهن فيما يتعلق بمجال قيم الشباب وتحولاته، وذلك من باب تحقيق التراكم العلمي المطلوب، إذ أن تناول المسألة الشبابية في بلدنا ما يزال، في معظم الدراسات والأبحاث، يمثل استطلاعا وصفيا مناسباتيا، في الوقت الذي أنشأت الدول المتقدمة مراكز ومجموعات بحث متخصصة تهتم أساسا بدراسة الشباب وتحولاته من أوجه متعددة وبمقاربات منهجية متنوعة.